الفصل الثاني

أبناء هولاكو

يشمل سجل التاريخ الخاص بأسرة هولاكو الحديث عن ولديه أباقا وتكودارخان، ثم أبناء الأول الذين ورثوا ملك هولاكو وهم أرغون خان وكيخاتوخان الذي انتهى حكمه بوفاته ١٢٩٥م.

والآن مع سرد تاريخي لأحداث سريعة من حياة أولاد هولاكو.

أباقا خان:

كانت ولادة أباقا في سنة ١٢٣٤م وجلس على العرش سنة ١٢٦٥م. واستمر في الحكم نحو سبع عشرة سنة.

حرص أباقا بعد أن ورث عرش أبيه في فارس على الإقامة في أذربيجان نائباً عن الخان الأكبر قوبلاي خان.

كان أباقا، شأن أبيه، يعطف على النصارى، بل لقد تزوج بمارية ابنة إمبراطور بيزنطة، وتحالف مع النصارى ضد المماليك في مصر والشام.

نشط أباقا إلى محاربة بركة خان، مما دفع بركة خان إلى الخروج إليه بقواته سنة ١٢٦٦م، لكن وفاته في الطريق حالت دون الحرب.

واندفعت جيوش أباقا إلى تركستان بعد ثلاث سنين واجتاحتها في تموز سنة ١٢٧٠م، ثم أطاح بملك هراة بعد ثماني سنوات وأقام مكانه ابنه شمس الدين.

ولم يقدر أباقا على مواجهة المماليك إلا بعقد المحالفات، وتكوين جبهة ضخمة من الأرمن والكرج والصليبيين وسلاجقة الروم والبيزنطيين، ويظهر دهاء بيبرس جليًا حين سعى إلى إقامة جيش نظامي قوي وإعادة إنشاء البحرية، وتوزيع الإقطاعات على أمراء المماليك وإصلاح الطرق والجسور، وحفر المصارف، وتحصين القلاع وتنظيم البريد بين مصر والشام.

نهض بيبرس إلى إبعاد المغول عن أطراف سلطنته بشمالي العراق وإلى معاقبة الإمارات التي ساندت المغول وغدرت بالمسلمين كالأرمن والكرج، والاستعداد لملاقاة الحملات الصليبية المحتمل وصولها إلى الشرق.

بادر الأرمن إلى مهاجمة الجيش المصري أثناء هبوطه سهل قليقية، لكن المصريين انتصروا عليهم في شهر آب سنة ١٢٦٦م، وقتلوا توروس ابن ملك الأرمن هيثوم، وأسروا أخاه ليو، واجتاح جيش مصر قليقية وقتلوا محاربيها وخربوها.

وسرعان ما انعقدت معاهدة بين بيبرس وملك الأرمن في مارس ١٢٦٨م.

والطريف أن بيبرس توجه إلى بلاد الروم مع جيشه في عام ١٢٧٦م، فأسرع إليه من أمراء المغول توقو بن إيلكاي وأخوه أورقتو على رأس جيش من خمسين ألف مغولي، ودارت معركة رهيبة بين الطرفين فانهزم المغول بأمر الله وقُتِل الأخوان.

ولما بلغ الخبر أباقا بكى؛ فقد كان القتلى من المغول بالألوف، والطريف أن أباقا أرسل إنذاراً إلى بيبرس يقول فيه:

«إنكم تنقضون فجأة كاللصوص وتطاردون فرساننا وطلائعنا وتقتلون بعضهم، فإذا ما بلغتنا الأخبار وتحركنا لصدكم تفرون كاللصوص، فإذا كنتم تريدون لقاءنا وقتالنا فادخلوا الميدان كالرجال، وإن لم تأت فإن جيوشنا مستعدة لقتالك في طليعة الشتاء، وإذا امتدت نار غضبنا إلى بلاد الشام، فإنها -بلا ريب- سوف تأتي على كل ما لكم من أخضر ويابس..»(*).

لكن لم يقدر لقاء الرجلين؛ حيث توفي بيبرس سنة ١٢٧٨م بمدينة دمشق ودفن بها.

(*) انظر جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني، ج٢.

وتوفي أباقا خان بمدينة همذان سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) لقد كان هو الابن الأكبر لهولاكو، وقد تزوج عدداً من النساء، وأنجب ولدين صارا ملكين من بعد وفاة أخيه هما: أرغون خان، وكيخاتو، كما كان له من البنات سبع.

أحمد تكودارخان:

هو الابن السابع لهولاكو، وقد تولى الحكم بعد وفاة أخيه أباقا، ولم يكد يتولى الحكم حتى أشهر إسلامه وتسمى باسم السلطان أحمد، وأرسل يطلب عقد معاهدة صادقة مع السلطان قلاوون، وقال في رسالته: إنه مسلم وإنه أمر ببناء المساجد والمدارس والأوقاف، وأمر بتجهيز الحجاج.

فأرسل قلاوون يهنئه بالإسلام ورضي بالصلح، وتم عقد معاهدة بين الطرفين.

لقد أعز الله الإسلام بأحمد الذي بذل ما في وسعه لحمل المغول على اعتناق الإسلام، مما أغضب الخان الأكبر قوبلاي خان وهدّد بالتدخل لإزاحة أحمد عن عرش فارس وذلك بتحريض زعماء الكنيسة النسطورية.

نشط أحمد تكودار إلى الخلاص من بطريرك الكنيسة فألقاه في السجن، مما أطلق العنان لغضب قدامى المغول، وسرعان ما نشبت الحرب الأهلية بين

المغول الذين أرسلوا إلى أرغون بن أباقا حاكم خراسان بتأييدهم إياه، ودعوه إلى حرب عمه أحمد تكودار والقضاء عليه.

انصاع أرغون إلى رأي قدامى المغول وأعلن خروج خراسان عن طاعة أحمد تكودار، وزحف بجيوشه على فارس، لكن تمكنت قوات السلطان أحمد من هزيمته قرب قزوين في مارس ١٢٨٤م، فأعلن توبته ودخوله في طاعة عمه أحمد.

لكن يد الغدر طالت السلطان أحمد، فهاهم خواصه يدبرون مؤامرة بالقصر ويقتل في شهر آب من العام نفسه ليثب أرغون على السلطة.

وقد حكم السلطان أحمد مدة عامين.

وهنا يبدو هذا التساؤل.

لماذا كل هذا الغضب على أحمد..؟!

ألأنه أسلم، وحاول أن يُحوِّل بلاد فارس إلى التوحيد؟

أم أن المغول عملوا على التخلص منه لأنه سعى إلى محالفة سلطان مصر قلاوون؟

لكن يد الخان الأكبر قوبلاي تحركت من خلف الستار لتقضي على حياة ذلك المغولي العظيم الذي أراد أن يحيي ما بدأه بركة خان في مغول الشمال، وأن ينشر الإسلام في مغول فارس.

أرغون خان:

تنفس المغول الصعداء حين خلصوا من أحمد تكودار وولوا أرغون سلطان فارس ٦٨٣هـ، وقد كان وثنياً كأبيه أباقا وجده هولاكو، وسرعان ما عاد النصارى واليهود إلى سابق عهدهم من احتلال الصدارة في الدولة، وتولوا المناصب الرفيعة في بلاط أرغون.

أصبح الطبيب اليهودي (سعد الدولة) وزيراً للمالية وكبير مستشاري أرغون، لكنه كان مكروهاً من المغول؛ وذلك لأنه خصَّ بني عقيدته من اليهود بالمناصب الرفيعة، وكان أرغون لا يصدر أمراً إلا بعد استشارته، وقيل: إن سعد الدولة اليهودي يمهد السبيل لقيام ديانة جديدة تدعو إلى الوثنية، مما أدى إلى الإطاحة به أواخر عهد أرغون.

وقد تزوج أرغون نصرانيةً مما دفعه إلى إعمار الكنائس التي دمرها أحمد.

سعى أرغون إلى محاربة المماليك، وحاول أن يحالف الغرب النصراني للقضاء على المماليك واقتسام دولتهم مناصفة، لكن سفاراته المتعددة إلى

الغرب لم تفلح؛ لأن ملوكها كانوا مشغولين بمشكلات بلادهم الداخلية. ولكن أرغون مات قبل أن يحقق حلمه في القضاء على المماليك.

والطريف أنه لم تكد تمر أربع سنوات على وفاة أرغون حتى دخل مغول فارس في الإسلام.

ويهمنا أن نذكر الآن نصاً من كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني الذي حضر هذه الأحداث، وعاينها عن كثب.. وله حكاية بعنوان: «اشتداد المرض على أرغون واضطراب الأمراء بسبب ذلك»، يقول رشيد الدين في الجزء الثاني من جامع تواريخه:

«في الرابع والعشرين من المحرم سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م عبر أرغون خان نهر (كر) ونزل في منطقة (باغة أران) وقد يئس الأمراء من حياته بسبب اشتداد المرض عليه، وبقية الأمراء متنازعين، وقد امتعض الواحد منهم من الآخر، ولكنهم كانوا جميعاً ناقمين على سعد الدولة، متألمين من غروره وتنطعه.

ثم اتفقت كلمة الأمراء في الرابع من صفر، وفي الرابع عشر من هذا الشهر أقسم بقية الأمراء على العمل متضامنين، واستقر رأيهم على ذلك، وشرعوا يكيدون لخصومهم».

كان رشيد الدين الهمذاني واسمه بالكامل: فضل الله رشيد الدين بن عماد الدولة أبو الخير، المعروف بالطبيب، والمولود في همذان سنة ١٢٤٧م، طبيباً زمن أباقا بن هولاكو، وقد التحق بخدمة غازان خان الذي تولى الحكم بين عامي ١٢٩٥، ١٣٠٤م وحظي بثقته وارتفع شأنه في عهد خلفه أولجايتو.

ألف رشيد الدين أشهر كتاب عن المغول هو جامع التواريخ أو تاريخ المغول الذي كتبه بأمر غازان ففرغ منه في عهد أولجايتو سنة ١٣١١م وشمل جزأين:

* الأول: مقدمة عامة في تاريخ الأنبياء وقدامى ملوك الفرس إلى سنة ١٢٥٨م.

أما الثاني: فيشمل تاريخ المغول حتى غازان.

كيخاتوخان:

تولى كيخاتو العرش يوم الأحد الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٩٠ هجرية أو سنة ١٢٩١ ميلادية.

كان كيخاتو الابن الثاني لأباقا، ولقد بدأ عهده بمحاكمة الأمراء الذين أثاروا الفتن والقلاقل التي انتهت بقتل سعد الدولة، وسرعان ما أصدر عفوه عنهم.

لكن لم تنقطع الفتن في عهده، فإن أحد الأمراء الفارين ويدعى بايدو أثار الأمراء على كيخاتو وزين لهم الثورة عليه، وسرعان ما فتكوا بوالي بغداد من قبل كيخاتو.

أمر كيخاتو بالقبض على الثوار وسرعان ما تم القبض عليهم وأرسلوا إلى تبريز وسجنوا ما عدا بايدو.

أرسل كيخاتو معاونيه للقبض على بايدو، لكن بايدو استطاع الخلاص منهم، وانضم إلى بايدو بعض الأمراء من خاصة كيخاتو وعلى رأسهم حسن ابن يوقو.

ثم انطلق الثوار إلى فارس، واستطاعوا هزيمة جيش كيخاتو على ضفاف نهر كر.

ثم ظفر الثائرون بالخان نفسه وتم إعدامه في يوم الخميس السادس من جمادى الأولى سنة ٦٩٤هـ الموافقة لسنة ١٢٩٥ ميلادية.

وفي اليوم التاسع عشر من الشهر نفسه انطلق رسول من الثائرين إلى غازان لإبلاغه بمقتل كيخاتو، وانطلق رسول آخر إلى بايدو يبلغه قرار الأمراء باختياره لتولي سلطان فارس خلفاً لكيخاتوخان.

غازان خان:

ولد غازان خان حفيد أباقا خان سنة ١٢٧١م، وكان يصحب جده منذ نعومة أظفاره في رحلات الصيد، وحين بلغ العاشرة من عمره ولاه أبوه أرغون خان إمارة خراسان تحت وصاية أخيه نوروز الذي حبب إليه الإسلام، وما لبث أن حارب بايدو الذي اغتصب السلطة بعد وفاة كيخاتوخان، وقد أعلن غازان إسلامه في شهر شعبان الموافق لسنة ٦٩٤ هجرية أو التاسع عشر من حزيران سنة ١٢٩٤ ميلادية، واتخذ اسم محمود وأسلم معه مغول كثيرون.

ولقد تولى غازان سلطان مغول فارس سنة ١٢٩٥م بعد أن هزم بايدو، مما أغضب أمراء المغول وأشرافهم عليه، فقتل بعضهم، وهرب بعضهم الآخر إلى ممالك المغول الأخرى.

شن غازان حملة ضخمة ليحارب المماليك وليسترد الفارين إلى مصر.

كما أن نائب دمشق واسمه سيف الدين قبجق لجأ إلى غازان يزين له الهجوم على الشام.

أعد غازان جيشاً ضخماً من مئة ألف مقاتل سنة ١٣٠٠م لغزو الشام.

وفي موقعة الخزندار قرب عسقلان في الثامن من ربيع الأول سنة ٦٩٨ هجرية انتصر المغول انتصاراً ضخماً على قوات الناصر قلاوون.

ثم زحف المغول إلى حمص فنهبوها، ثم إلى دمشق، وتم وضع الأمان من غازان لأهل دمشق، ثم نَقَضَه حين نزل جنده بظاهر دمشق وعاثوا فيها فساداً.

ثم اقتحم جنده قلعة دمشق ونكلوا بأهلها، وقتلوا الجند والفلاحين والعامة حتى وصل عددهم إلى مئة ألف.

غادر غازان الشام عائداً إلى بلاده وخلف عليها نائباً سنة ١٣٠٠م لكن اضطر النائب إلى اللحاق بغازان، فعمد نائب دمشق قبجق إلى قتل المغول وتتبع المفسدين منهم والبطش بهم، ثم أرسل إلى السلطان الناصر قلاوون نبأ خروج غازان ونائبه من دمشق وعودة سورية إلى حوزة المماليك.

لكن غازان أرسل سنة ١٣٠١م إلى الناصر وفداً يهدده ويحذره من مهاجمة حدوده، وعلم السلطان الناصر أنه لابد من الحرب.

وفي ١٣٠٣م قامت الحرب بين الفريقين، وخرج الناصر بجيش مصر وتلاقى بجيش المغول في مرج الصفر جنوبي دمشق، عند بلدة شقحب، وعُرفت المعركة باسمها، وشهدها ابن تيمية. فانهزم المغول انهزاماً شنيعاً،

وفر قائدهم قطلوشاه إلى الفرات، وأسر المصريون من المغول عشرة آلاف، وغرق كثيرون منهم.

ولم تقم لغازان بعد تلك الموقعة قائمة، ولم يلبث أن مات سنة ١٣٠٤م.

والحقيقة أن غازان أعاد إلى الإسلام المكانة التي كانت عليه أيام بركة خان والسلطان أحمد، كما كبح جماح الوثنية، وقضى على الفوضى في إمبراطورية المغول، ولقد حزن عليه مسلمو المغول حزناً شديداً.

ثم أتى من بعد غازان أولجايتو بن أرغون الذي حكم مغول فارس إلى سنة ١٣١٦م، وفي عهده حاصر المغول مدينة الرحبة السورية سنة ١٣١٢م، وبعدها بثلاث سنين وقعت الحرب بين المغول والمماليك في ماردين ومني المغول بالهزيمة.

لكن تحسّنت العلاقات بين الناصر قلاوون وأبي سعيد خان المغولي الذي تولى بعد وفاة أبيه أولجايتو سنة ١٣١٦م؛ إذ صالح أبو سعيد الناصر سنة ١٣٢٢م، كما أن الناصر تزوج إحدى بنات المغول من أحفاد باطوخان.

ولم يعيّن أبو سعيد (ت٧٣٦هـ) وريثاً، فوقع الصراع من بعده، ووصل إلى الإليخانية سبعة من الإليخانات لَم يفلحوا في لَمِّ الشتات، وزاد الإيلخانيون ضعفاً، واستمر ذلك مدة ثمانية عشر عاماً، وانقسمت الأسر المتنافسة على السلطان إلى أمراء طوائف، وسرعان ما انتهت دولة الإليخانيين.

تعقيب

كان لإسلام مغول فارس أثر طيب على حياتهم، فتركوا العادات السيئة التي كانوا عليها مثل تزوج الابن من نساء أبيه بعد وفاته، وعدم غسل ثيابهم حتى تبلى، وعدم التمييز بين طاهر ونجس، كل هذه العادات بدّلها الإسلام بفضل اعتناقهم وتعلمهم من المسلمين، فظهرت المصاهرات بين الإليخانات وأمراء المغول، وبين الترك والإيرانيين، فأثرت إحدى زوجات أولجايتو عليه في اعتناق الإسلام، وصاهر حاكم قلعة ماردين رنيا خاتون، وصاهر أزبك بن طغطاي أحد أمراء المغول السلطان محمد بن قلاوون، وظهر أثر هذا الزواج في شخصية السلطان أبي سعيد بهادرخان، فنشأ على الخير، وكان قليل الشر، يكره الظلم ويؤثر العدل، وينقاد للشرع.

ونشر الإليخانيون البر والإحسان، وبنوا المباني الخيرية، فأنشأ محمود غازان ومحمد أولجايتو الربع الرشيدي في شرقي تبريز، وكان يحتوي على أربعة وعشرين بيتاً للضيافة.

وسعوا إلى رد المظالم وتعقب مرتكبي المعاصي، مثلما فعل السلطان محمود غازان (٦٩٤-٧٣٣هـ) في درء المفاسد ورد المظالم ببغداد، كما شدد السلطان أبو سعيد (٧٢٠هـ) العقوبة على شاربي الخمور، وخرّب الحانات، وعاقب من تاجر فيها.

وظهر اهتمام المغول وعنايتهم بموسم الحج، فخرج المغول في صحبة أهل العراق ٧٢٠هـ، ووقفوا بعرفات، وكانوا يخرجون قبل الحج بوقت كاف، ففي ٧٢٣هـ خرجت جماعة كبيرة وكان على رأسهم بعض أميرات المغول منهن أخت أرغون خان، وعمة السلطان محمود غازان، واتجه الركب إلى مصر ومنها إلى الحجاز.

وظهر تأثير الإسلام على الإليخانيين في اتخاذهم الألقاب والأسماء العربية والإيرانية، فاتخذ تكودار اسم أحمد عندما تولى السلطان العرش المغولي؛ واتخذ السلطان غازان ألقاباً إسلامية فعرف بلقب مظفر الدنيا والدين محمود غازان خان، واتخذ أولجايتو لقب محمد خدابنده وتلقب بغيّاث الدين.

وكان التحول كبيراً في ميدان اللغة؛ حيث اتخذ المغول اللغة التركية والفارسية، وشاركوا في الدعوة إلى الإسلام.

أما عن اهتمام المغول بالثقافة فحدّث ولا حرج عن اهتمامهم ببناء المساجد والمدارس، وترتيب والقائمين عليها، ومنحهم الرواتب والعطايا، فذاع علم الهيئة (حركات الكواكب)، وأنشأ غازان مرصداً، فكان أصيل

الدين بن نصير الدين الطوسي مشرفاً على مرصد مراغة في عهد أولجايتو، ومنهم قطب الدين الشيرازي.

وأنشأ السلطان المغولي محمود غازان معملاً للأبحاث العلمية في الكيمياء، ولم تقل العناية بالطب في عهد محمود غازان ومحمد أولجايتو، ونهض بذلك رشيد الدين فضل الله الهمذاني، فجلب العقاقير والأدوية إلى الربع الرشيدي.

obeikandl.com